المستشرقون ومذهبهم في الاعتقاد ببشرية القرآن

الأستاذة: فاطمة سوالمي
جامعة الأمير عبد القادر

ظهر الإسلام وسط جملة من العقائد والوثنيات أثبتت جميعها فشلها في النهوض بالإنسان و الارتقاء به نحو الكمال، وذلك بسبب تبنيها لتصورات و رؤى كرست للظلم و الاستبداد و عملت على نشر الفساد والمنكرات في كل الأرجاء،الأمر الذي استلزم تدخل السماء لتصحيح المسار والعودة بالإنسان إلى طريق الجادة والصواب.

فكان مجيء الإسلام بمثابة الإعلان عن بداية أحسن الأدوار في تاريخ الإنسان. وذلك بسبب نظرته الجديدة للكون وللإنسان وللعالم ككل، والتي نجحت في تخليص الإنسانية من براثن تلك الوثنيات (وثنية الروم والفرس و العرب) التي أعيت عقول البشر بالخرافات.

جاء الإسلام ليبين بأن البشرية كلها متساوية من حيث الإيمان بالله،و من حيث الانتماء للأصل الواحد، ومن حيث نعمة التكريم التي تميز بها الإنسان عن باقي المخلوقات، ليؤسس بذلك مجتمعات إنسانية تتجاوز حدود اللون والجنس واللغة وتسعى لتحقيق الخيرية التي أراده الله لعباده.بهذه العقيدة انتشر الإسلام،وعم كل أنحاء شبه الجزيرة العربية و منها انطلق رجاله إلى كل أصقاع العالم فاتحين ومبشرين بعالم جديد يسوده العدل والأمان .

إن السرعة التي انتشر بها الإسلام في تلك الأثناء وضعه في موضع المناوئ والمعارض لتلك العقائد، وخصوصا المسيحية التي رأت فيه الخطر الأكبر الذي يهدد وجودها، حينما أعلن بأن الله واحد هو وحده المستحق للعبادة دون سواه "قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد" الإخلاص؛ وأعلن بأن النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو آخر الأنبياء "إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا و إن من امة إلا خلا فيها نذير" فاطر 24

وحينما أقرّ أن الرسالات السماوية اختتمت بالإسلام "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الإسلام دينا " المائدة 3 وعليه فمن يؤمن بخلاف ما جاء به الإسلام فهو كافر وجاحد .

هذه التعاليم الواردة في القرآن الكريم هي في نظر رجال الدين و من ورائهم الكنيسة بمثابة معاول هدم أتت على المسيحية من الأساس لأنها تمثل مخالفة جذرية للرؤية المسيحية التي تؤمن بفكرة التعدد و أن المسيح ابن الله وثالث الثلاثة (الأب و الابن والروح القدس).

كما تؤمن بأن المسيح هو آخر الأنبياء، إذ لا نبوة بعد المسيح كما "تعتقد أن الهدف من إرسال الأنبياء و عقائدهم منذ بدء الخليقة ليس سوى تمهيد تدريجي لأجل بلوغ ذروة التاريخ الكوني المتمثل ب "التجسيد الإلهي" في شخص المسيح"[1]

ولما كان القرآن الكريم هو المرجع الوحيد الذي اعتمد عليه النبي صلى الله عليه وسلم في نقد عقائد المسيحية، قرر هؤلاء التصدي للقرآن الكريم، وذلك بإثارة الشكوك والشبهات حول مصدره لأجل الوصول إلى نفي العنصر الإلهي عن نبوة الإسلام ومن ورائها القرآن.

(1) اليكسي جورافيسكي –الإسلام والمسيحية- ترجمة خلف محمد الجراد- د ط –الكويت 1996 ص 69

وهنا يتضح لنا جليا التعاون والتكامل بين عمل المستشرق وعمل المنصر، فكلاهما يجتهد من أجل الترويج لشبهة المصادر الأجنبية للقرآن، و أنه ليس كتابا منزلا أ وإنما هو من تأليف نبي الإسلام، الذي استقى سادته من العقائد المتواجدة في البيئة العربية وخصوصا المسيحية و اليهودية و ذلك لكي يمهدا الطريق للتنصير في بلاد المسلمين.

والفارق البسيط بينهما هو أن التنصير يتعامل مع من يريد تنصيره مباشرة بينما اتخذ الاستشراق من التأليف والكتابة في الدوريات والمحاضرة في المؤتمرات منبرا لنفي ألوهية المصدر القرآني وهي القضية التي وقع حولها إجماع كل المستشرقين سواء أكانوا من فئة المتعصبين ومن فئة المنصفين.

فما هي الأدلة التي اعتمد عليها هؤلاء؟ و ما هي الكيفية التي تمت بها عملية الاقتباس و الأخذ من العناصر الأجنبية؟ و ما هي المدة التي استغرقتها تلك العملية؟

يقول المستشرق جولد زيهر (وهو من المستشرقين المتعصبين): "إن تبشير النبي العربي ليس إلا مزيجا منتخبا من معارف و آراء دينية عرفها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية و المسيحية، وغيرها التي يتأثر بها تأثرا عميقا و التي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه"[1]

أما صاحب حضارة العرب _والذي أنصفهم في العديد من القضايا_ جوستاف لوبون فيقول: "...وكان من مقاصد محمد أن يقيم دينا سهلا يستمرئه قومه، وقد وفق

(1)جولد زيهر – العقيدة والشريعة في الإسلام :ترجمة محمد يوسف موسى وآخرون د ط _بيروت_ دار الرائد العربي -1910- ص 12

لذلك حين أخذ من الأديان الأخرى ما يلائمهم، ولم يفكر محمد في إبداع دين جديد قط، وهو الذي أعلن أنه يسير على غرار من تقدمه من أنبياء بني إسرائيل"[1]

في حين يرى المستشرق وعالم الاجتماع ماكسيم رودنسون _المعروف بمواقفه العادلة الرافضة للاستعمار_: "بأن الديانات غير العربية كان لها تأثيرها الذي أضافته على الروح الدينية لمحمد من خلال أفكارها و خبراتها، وان كان هناك العديد من الدراسات التي تمت في هذا الصدد توضح تأثير كل من اليهود والمسيحية على النبي"[2]

أدلة المستشرقين على وجود الاقتباس:

أما الأدلة التي اعتمد علها المستشرقون في إثبات بشرية القرآن _على حد زعمهم _ تستند جميعها إلى مظاهر الشبه ونقاط الالتقاء بين كل من الإسلام والديانات الأخرى.

كالشبه الموجود حول فكرة القيامة بين ما جاء في الإسلام و ما جاء في التوراة والإنجيل،يقول (جولد زيهر) :"إن ما يبشر به الرسول والمتعلق بالدار الآخرة ليس إلا مجموعة مواد انتقاها بصراحة من الخارج يقينا، و أقام عليه هذا التبشير، ولقد أفاد من تاريخ العهد القديم وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء "[3]

1- غوستاف لوبون _ حضارة العرب –ترجمة عادل زعيتر _ ط4- د ب-مطبعة عيسى البابي الحلبي وسركاه – د ت ص 118

2- ماكسيم رودنسون _حياة النبي والمشكلة الاجتماعية لأصول الإسلام _ترجمة زينب رضوان ضمن دورية الفكر العربي –ع 32 ص 3 _نقلا عن عبد الرزاق هرماس –مطاعن المستشرقين في ربانية القرآن- الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الكويت –ع 38 –أوت 1999.

3 - جولد زيهر مرجع سابق ص 9

و ذهب بروكلمان إلى القول :" بأن معتقداته صلى الله عليه وسلم- فيما يتعلق باليوم الآخر ترجع إلى مصادر يهودية، و هكذا تتصل بصورة غير مباشرة بمصادر فارسية وبابلية قديمة "[1]

و بخصوص التشابه الموجود حول القصص القرآني مع القصص اليهودي المسيحي لدليل على بشرية القرآن و تأثره بالعوامل الخارجية و خصوصا منها عامل التأثير المسيحي، الذي يظهر جليا في السور المكية الأولى، و التي نتج عن العلاقة التي كانت تربط بين مؤسس الإسلام والفقراء المسيحيين"[2]

أما بشأن التشابه في بعض الشعائر و العادات فيرى المتشرق فليب حتي أن " الإسلام نحح في ترتيب صلاة الجمعة على منوال اليهود في عبادتهم بالكنيس إلا أنه تأثر من بعد بطقوس صلاة الأحد التي يمارسها النصارى في البيَع"[3]

و يذهب المستشرق بلديك إلى "أن المسيحية اليهودية قد تبنت خلال القرون القليلة الأولى عددا من المواقف تبناه الإسلام فيما بعد مثل :الإقرار بالشريعة اليهودية في الشؤون الدينية و مثل تأكيد فريضة الختان"[4]

1- كارل بروكلمان —تاريخ الشعوب الإسلامية ـترجمة نبيه أميت فراس ـ منيرالبعلبكي ط 3 ـبيروت ـدار العلم للملايين 1960 ص 130

2- بلاشير-معضلة محمد -

3- شوقي أبو خليل ـالإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، طـبيروت دار الفكر - 1995 —ص 28

4- محمد عبد الله الشرقاوي —الاتجاهات الحديثة في دراسة التصوف الإسلامي (مصادره وآثاره) دط ـالقاهرة ـكلية دار العلوم ـ1993 ص 48

المنافذ التي انتقلت عبرها المعارف الدينية:

وفيما يتعلق بالمنافذ التي وصلت عبرها تلك المعلومات والمعارف الدينية إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيشير المستشرقون إلى منفذين اثنين هما الراهب بحيرا و ورقة ابن نوفل يقول المستشرق ج ايداك :"واتفق لمحمد في أثناء رحلاته أن يتعرف قليلا من عقائد اليهود والنصارى، و لما أشرف على الأربعين أخذت تتراءى له رؤى أقنعته بأن الله اختاره رسولا"[1]

و يقول المستشرق جوستاف لوبون "...وتقول القصة أن محمدا سافر مرة مع عمه إلى سورية فتعرف في بصرى براهب نسطوري في دير نصراني، فتلقى منه علم التوراة ...وتهيأ له بذلك السفر إلى سورية والاجتماع مرة ثانية بالراهب الذي أطلعه سابقا على التوراة"[2]

الرد على شبهة المصادر الأجنبية للقرآن الكريم:

إن الأدلة التي اعتمد عليها كل من المستشرقين والمبشرين في الطعن في ألوهية القرآن الكريم، لا تلبث أن تتهاوى أمام النقد العلمي الموضوعي، ورغم ذلك ما يزال هؤلاء متمسكين بهذه الفرضية التي ارتقت عندهم إلى مصاف اليقين الذي لا يقبل الشك .والسبب في رأينا يعود إلى العقلية المسيحية التي لا تريد أن ترى إلا حقيقة واحدة، هي تنصير الشعوب و تعميد العالم، مع أن يسوع لم يدع يوما إلى مهاجمة المخالف والتجني عليه بأنواع من الأكاذيب والافتراءات لإرغامه على اعتناق المسيحية .

1- عفاف صبرة المستشرقون ومشكلات الحضارة . دط-مصر ـدار النهضة العربية 1985 ص 75.

2- جوستاف لوبون ـ حضارة العرب ـص 130

أما بخصوص القضايا التي وقع فيها التشابه بين الإسلام والديانات الأخرى والتي بنى عليها المستشرقون مذهبهم في الاعتقاد ببشرية القرآن [1] فهي ليست بالطرح الجديد ولا بالسبق الخطير الذي اكتشفه هؤلاء.و يمكن الرد عليها بما يلي:

1. أن مشركي مكة قد سبقوا المستشرقين إلى ذلك كما جاء في قوله تعالى :"و لقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذين يلحدون إليه أعجمي و هذا لسان عربي مبين"[2]و قوله جل وعلا " وقال الذين كفروا إن هذا إلا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا،وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا، قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض انه كان غفورا رحيما "[3]
2. إن وجود الشبه لا يمكن أن يكون دليلا على الاقتباس و التوفيق بين الديانتين السابقتين عن الإسلام، لأن القرآن قد عارض هاتين الديانتين، في أهم وأخطر قضية، وهي قضية الألوهية.
3. إن حديث القرآن الكريم عن الديانات السابقة لدليل كاف على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقتبس شيئا من تلك العقائد و لو حدث ذلك فعلا، لكان القرآن الذي ألفه ــحسب زعمهمــ قد امتنع عن الإشارة إليها حتى لا ينكشف أمره.

---

1 -

2- النحل الآية 103

3- الفرقان /4-7.

4. إن وجود التشابه بين الإسلام والديانات السابقة، يعتبر دليل صدق على دعوة النبي صلى الله عليه وسلم التي صدرت عن الله الواحد الذي أرسل موسى وعيسى من قبل وعليه "فان محمدا لم يكن بدعا من أولئك المرسلين، ولا كان أول نبيا خاطب الناس باسم الوحي، و حدثهم بحديث السماء، فمن لدن نوح تتابع أفراد مصطفون أخيار ينطقون عن الله و لا ينطقون عن الهوى، ولم يكن الوحي الذي أيدهم به مغايرا للوحي الذي أيد به محمدا، بل كانت ظاهرة الوحي في جوهرها متماثلة عند الجميع، لأن مصدرها واحد هو الله، ولأن غايتها واحدة في الوصول إلى الله"[1]

نقد رواية التعلم من الراهب بحيرا:

ذكرت الروايات أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما بلغ السن الثانية عشر اصطحبه عمه أبو طالب في تجارة إلى الشام، حتى وصل بصرى وكان في هذه المنطقة راهب عرف ببحيرا واسمه جرجيس،فلما نزل الركب خرج إليهم وأكرمهم بالضيافة، وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك وعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته، فقال و هو آخذ بيده هذا سيد العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال أبو طالب :وما علمك بذلك ؟،فقال إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر و لا شجر إلا وخر ساجدا، و لا تسجد إلا لنبي، واني أعرفه بخاتم النبوة في أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة، وإنا نجده في كتبنا، وسأل بحيرا أبا طالب أن يرده و لا يقدم به إلى الشام خوفا عليه من اليهود، فبعثه عمه مع غلمانه إلى

1- صبحي الصالح _الإسلام و مستقبل الحضارة _ ط2 بيروت _بيروت-دار الشورى_1990 ص 241

مكة"[1] هذه الرواية كما أوردها كتاب السيرة، لا تتضمن أية دلالة أو إشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد استمد معلومات القرآن الكريم من الراهب بحيرا وذلك للأسباب الآتية:

أ. إن النبي صلى الله عليه وسلم كان برفقة عمه ورجال القافلة، ولو حدث أمر كهذا لما خفي كذلك على أفراد القافلة، ولكان أمره قد شاع في مكة، ولكانت قريش أول من تنازعه في هذا الأمر.

ب. إن تاريخ السيرة النبوية يؤكد بان النبي صلى الله عليه وسلم لم يسافر في حياته إلا مرتين :الأولى في طفولته مع عمه أبو طالب،والسفر الثاني في شبابه برفقة ميسرة غلام السيدة خديجة رضي الله عنها في تجارة لها إلى الشام، وكان سنه يومئذ خمسا وعشرين سنة .

وفي هذه المرة يذكر بعض الباحثين بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد استراح قرب صومعة لراهب يدعى نسطورا، فعرف هذا الراهب بفراسته بعض أمارات النبوة في محمد صلى الله عليه وسلم فقال لميسرة "ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي...."، وفي هذا اللقاء أيضا فان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بمفرده، كما أن أياما معدودة لا تكفي لئن ينقل علم التوراة كلها.

ج. إن المستشرقين قاموا بعملية اقتطاع لهذه الرواية بحيث تحدثوا عن الفقرة التي تثبت اللقاء بين النبي والراهب، وتجاهلوا الجزء الآخر والمتعلق بمعرفة الراهب لصفات النبوة في شخص سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

1- ابن كثير _السيرة النبوية –تحقيق:مصطفى عبد الواحد_ د ط _بيروت دار الفكر _ 1978 ج 1ص 180-182

د. إن قصة الراهب بحيرا قد ضعفها الشيخ محمد رشيد رضا، لأن الروايات الخاصة بها ضعيفة الأسانيد، إلا رواية الترمذي وليس فيها اسم بحيرا، وفيها غلط في المتن وليس في شيء من تلك الروايات أنه صلى الله عليه وسلم سمع من بحيرا شيئا من عقيدته أو دينه[1]

نقد رواية التعلم من ورقة ابن نوفل: ورقة ابن نوفل هو الشخص الذي لجأت إليه السيدة خديجة رضي الله عنها حينما اخبرها الرسول صلى الله عليه وسلم بما رآه في غار حراء، ففي الأخبار أن خديجة رضي الله عنها ذهبت رفقة النبي صلى الله عليه وسلم إلى ابن عمها ورقة ابن نوفل وقصت عليه الخبر فطمأن النبي صلى الله عليه وسلم وقال له:"أيا ابن أخي ماذا ترى؟فأخبره الرسول خبر ما رأى فقال له ورقة هذا الناموس الذي انزل على موسى و هو جبريل، يا ليتني أكن فيها جدعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: أو مخرجي هم؟قال ورقة :نعم لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، وان يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا...." [2]

إن هذا الحديث الذي رواه الشيخين في الصحيحين، وهو حديث صريح ولا توجد فيه أية إشارة أو علامة تفيد بأن النبي صلى الله عليه وسلم أخد عن ورقة التوراة والنجيل، وكل ما هنالك أن السيدة خديجة رصي الله عنها، خافت على النبي صلى الله عليه وسلم جراء ما حدث له بغار حراء، فأرادت أن تطمئن على زوجها فقصدت ابن عمها ورقة ابن نوفل لأنه أعلم العرب بهذا الشأن[3]

1- محمد رشيد رضا ـالوحي المهدي ـ دط ـالجزائر ـ دار الكتب ـ1988 ـ ص 96
2- رواة البخاري في صحيحه:كيفية بدء الوحي، باب كيف بدأ الوحي ـ ج 1 ص 5
3-محمد رشيد رضا مرجع سابق ـ ص 124

إن كتاب السيرة وأهل الحديث، لم يذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد التقى بورقة ابن نوفل، وكان يتردد عليه، إلا في هذه المرة رفقة السيدة خديجة رضي الله عنها.

إن ورقة لم يكن بالعالم المتبحر في علم التوراة كما صوره المستشرقون، حتى يتعلم منه النبي صلى الله عليه وسلم، ولو فرضنا جدلا بأن النبي قد تلقى منه علم التوراة، لما كان النبي قد خاف و ارتعد حينما فاجأه الوحي وهو بغار حراء، بل يحدث العكس لأنه لقي ما كان ينتظره و يرجوه، وهو مجيء الوحي والتكليف بالرسالة .

ويعلق الدكتور عبد الكريم الخطيب على هذه الدعوى قائلا :"إن ورقة قد مات بعد قليل من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم لم يشهد أحداث الدعوة ولم يدرك وقائعها،فكيف يضمن القرآن الذي وضعه بين يدي محمد صلى الله عليه وسلم .كيف يضمنه أحداثا لم تقع حتى بعد أن مات وصار ترابا في التراب ؟كيف يذكر هذه الأحداث التي كان يتنزل بها الوحي في حينها محددة الزمان والمكان، فهذه غزوة النبي صلى الله عليه وسلم مثلا في بدر، وأحد، وحنين أنها مشاهد حية وقعت بين المسلمين و بين أعداء النبي والإسلام، وقد سجل التاريخ أحداثها من أوثق المصادر بعد أن ذكرها القرآن في حينها،فهل كان ورقة شاهد هذه المعارك، لقد طواه الموت قبل ذلك بزمن قليل، فكيف إذن يذكرها في القرآن الذي وضعه لمحمد؟"[1]

أما عن الكيفية أو الطريقة التي تمت بها عملية الاقتباس والأخذ من الديانات السابقة عن الإسلام،أو المدة التي استغرقها النبي ــصلى الله عليه وسلم ــفي نقل وكتابة تلك المعارف الدينية، فلا أحد من المستشرقين تحدث عنها أو أشار إليها، فالذي يعنيهم

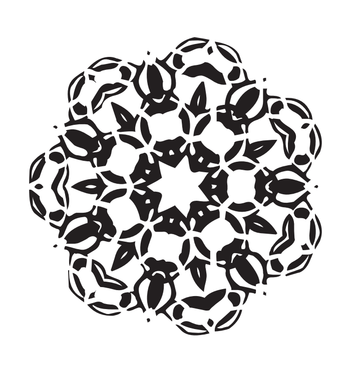
1- عبد الكريم الخطيب –النبي محمد ــصلى الله عليه وسلم ــص 91

تزييف حقائق الإسلام وتشويه محاسنه، أما كيف ولماذا ومتى، فهذه الأسئلة لا تخدم أهدافهم، ولا أهمية لها في منهج دراستهم.

إن الأدلة التي ذكرها هؤلاء المستشرقون تدينهم أكثر مما تؤيدهم، لأن القيام بإلقاء نظرة ولو بسيطة على بعض كتب الحديث والتفسير والسيرة،تقضي على استدلالاتهم الواهية واستنتاجاتهم المغرضة وخير ما نختتم به هذه المداخلة هو التساؤل التالي:

"إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم ألف القرآن وهو الآن بين أعيننا و بين أيدينا، فيا ترى متى تعلم الرسول ؟وفي أي مدرسة من المدارس القديمة انتظم فيها ؟و هل يا ترى عندما ألف القرآن استمده من المسيحية؟أو من اليهودية؟أو من الصابئة ؟أو من العربية؟ وبأي لغة كانت؟

فالمسيحية لم تكن بلسان عربي، و إنما كان لسانها لسانا سريانيا والمجوسية لم تكن عربية وإنما كانت أعجمية وبلسان فارسي، وكذلك الصائبة لم تكن بلسان عربي وإنما كان لسانا آرميا .وكذلك الوثنية الفكرية لم تكن باللسان العربي، و إنما كان لسانها رومانيا"[1]



1- محمد إبراهيم الفيومي تاريخ الفكر الديني الجاهلي ص 21-22